إهداء

إلى روح أمي الطاهرة
محلقة في رحمة الله وغفرانه
وجنات خُلده ورضوانه
أملاً كانت تتمنى أن تراه
ودربًا طالما دفعتني إلى منتهاه
اللهم ارفع درجاتها في عليين
واجمعها في الآخرة مع النبيين والشهداء والصديقين
واجعل ثواب هذا العمل في ميزان حسناتها
وارزقها النظر إلى وجهك الكريم

obeikan.com

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم فضيلة الإمام يوسف القرضاوي
رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

حمدا لله ، وصلاة وسلاما على رسوله محمد ، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أما بعد)

فعندنا نحن المسلمين مصدران كبيران للإسلام : مصدر مؤصِّل ومصدر مكمل ، أو مصدر يؤسس ، ومصدر يبين ويشرح ، أو مصدر أول ، ومصدر ثان ، وهما القرآن والسنة .

فالمصدر الأول هو القرآن الكريم ، الذي أنزله الله على رسوله محمد بطريق الوحي الجلي ، كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٥) .

وهو الذي قال الله فيه لرسوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩) .

وقال في ختام سورة يوسف : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف:١١١) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:٩) .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣).

والمصدر الثاني هو : السنة النبوية ، التي جاء بها محمد ﷺ ، وتتضمن البيان النظري للإسلام ، والتطبيق العملي له ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

﴿ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل:٦٤). وقال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) .

وهذه السنة تشمل : ما صحت روايته عن النبي ﷺ من قول أو فعل ، أو تقرير أو سيرة ، أو صفة خُلُقيَّة أو خَلْقية .

ومن هنا قام علم تفسير القرآن وعلوم القرآن وما يتعلق به في ثقافتنا الإسلامية ، كما قامت إلى جوارها علوم السنة ، أو علوم الحديث ، نحو تسعين علمًا عدها الإمام السيوطي في كتابه (تدريب الراوي في تقريب النواوي) .

وعلق على كل من هذه العلوم الشريفة أعداد هائلة من العلماء ، زخرت بهم بحار هذه العلوم ، وقاموا بها علمًا وعملاً ، وبيانًا وشرحًا ، وفصلوها تفصيلاً في كل أنحاء البلاد ، وفي كل ما يحتاج إليه العبد ، وكانوا كما جاء في الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[1]. وقد قواه ابن القيم .

وقامت في كل أنحاء العالم مدارس ومعاهد ، وجوامع وجامعات ، وأندية وروابط ، لتدريس هذه العلوم وتكميلها وتوضيحها ، حتى تضخمت ونضجت وأثمرت .

وكان من ذلك في مصر ، الجامع الأزهر ، وما تفرع عنه ، وما أضيف إليه من مدارس ودور للعلم بجانبه ، من معاهد وكليات وجامعات ، فإن لكل منها مكانها ومكانتها ، مثل كلية دار العلوم ، والجامعات الحديثة ، التي كان لها صداها ومداها في خدمة القرآن والسنة وعلوم الأمة ، فلا غرو أن تجد في هذه دراسات وكتبا وبحوثا قيمة ، نالت حظها من الدرجات العلمية الجامعية المعروفة .

والكتاب الذي أقدمه اليوم للقراء العرب هو إحدى هذه الدراسات القيمة التي ظهرت من غير الأزهر ودار العلوم وما في معناهما ، وإنما هو من إحدى كليات

---

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٣٢) ، وابن بطه في الإبانة (٣٣) ، و الخطيب في شرف أصحاب الحديث صـ ٢٩ ، وقال عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الشرعية (٣٤٢/١): قال يحيى بن معين : ما روى إسماعيل عن الشاميين فهو صحيح . ومعان هذا شامي . دمشقي ، وصححه الألباني في صحيحه في مشكاة المصابيح (١٨٥٣) .

الجامعات المدنية ، فهو من قسم اللغة العربية ، ولا ريب أن بين العربية والإسلام صلة وثيقة .

إنه كتاب الدكتور حسن فوزي حسن الصعيدي عن (الإمام الذهبي ومنهجه في نقد متن الحديث الشريف) .

والحقيقة أني لم أكن أعرف الأخ حسن من قبل ، فبعدى عن مصر من أكثر من نصف قرن ، جعلني أجهل الكثير من أبنائها ، والكثير مما يصدر عنهم .

صحيح أن مصر ـ حرسها الله ـ تأخرت وتدهورت في نواح كثيرة عملية وعلمية ، شهد بذلك كل العارفين بشؤونها وأحوالها ، وكلما مرت الأيام ازداد الخسار والدمار عليها ، وهذا ما شهد به القاصي والداني .

ولكن بين هذا الركام ، تخرج أحيانا أعمال علمية ، تحسب لأصحابها ، فما يزال الخير كامنا في هذه الأمة إلى يوم القيامة ، ولا تخلو الأمة خلوا كاملا من هذا الخير ، كيف والله تعالى يقول : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٨١) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة »[١] .

ولهذا على الرغم مما ينزل بمصر ويحيق بها ، لا تزال ترى فيها ما بين حين وآخر ، أعمالها تسر بها أنفسنا ، وتقر بها أعيننا ، فضلا من الله تعالى علينا ، حتى لا تيأس أبدا . ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧) .

جاء الأخ حسن ليعمل في مدارس قطر ، أو في مساجدها ، وقدم إليَّ ليعمل في مكتبي مع الشباب العاملين ، وقبلته في أول الأمر دون أن أعرفه ، ثم عرفت أن لديه دراسة أطلعني عليها ، فأعجبت بها ، وعرفت أن الرجل ، ينبغي أن يعرف قدره ، ويبرز دوره ، فلا يجوز لنا أن نغمط جهد أبنائنا وإخواننا الجاهدين الذين حفروا الأرض ، وبذروها بالبذور الطيبة ، وسقوها بالماء الطيب ، وجهدوا عليها جهدهم حتى آتت أكلها .

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧٩/١) .

لقد اكتشفت أن هناك كليات وجامعات غير شرعية ، تعطي درجات عليا في الدراسات الشرعية في الحديث كما في رسالتنا هذه ، وفي التفسير ، كما عرفت أن كلية الدراسات العربية في جامعة أسيوط أعطت طالبا نجيبا درجة الدكتوراه في التفسير ، وكان موضوع دراسته : القرضاوي ومنهجه في التفسير ، كما عرفت أن بعض كليات التربية المدنية أعطت أكثر من ماجستير عن منهج القرضاوي في التربية .

ولقد أعجبني في هذه الدراسة : أنها حول شخصية أحبها وأقدرها وأعرف مقامها ، وهي شخصية الإمام الذهبي ، أحد كبار أئمة الحديث والتاريخ والنقد الأفذاذ ، الذين أعجبت بهم في حياتي ، وبنظرتهم الاعتدالية ، التي تقوم على التوازن والإنصاف مع الموافق والمخالف . . . وهذا لا يتأتى لكل إنسان .

ولقد تتبعت الإمام الذهبي في كثير من أحكامه في كتبه ، مثل : ميزان الاعتدال ، وطبقات الحفاظ ، وتاريخ الإسلام ، وسير أعلام النبلاء ، وغيرها من كتبه الكثيرة ، في مختلف علوم الحديث ، والتي لا يستغني عنها باحث ، وهي وحدها ركن ركين في المكتبة الإسلامية .

فوجدته رحمه الله لا يحيد أبدًا عن العدل والنصفة ، حتى مع الملاحدة وأعداء الدين . ومع الظلمة والجبابرة المستكبرين في الأرض . إذا كان لهم من العلم والفكر والأدب والعمل ما يقدمونه للناس .

انظر إلى قوله عن الحجاج ، وما اشتهر به من ظلم وقتل ، وإيذاء الناس وتجبر عليهم . فهو لا ينسي الكثير من الفظائع ، ولا يخفي قليل الإحسان . ففي ترجمة الحجاج ، ذكر سوء سيرته وظلمه ، وتجبره وخبثه ، وسفكه للدماء ، وحصاره لابن الزبير بالكعبة ، ورميه إياها بالمنجنيق ، وإذلاله «لأهل الحرمين» ، وتأخيره للصلاة ثم قال : «نسبه ولا نحبه ، بل نبغضه في الله ، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان»[1] .

ومع هذا لم ينسَ الذهبي حسنات الحجاج وإن قَلَّت ، وذكر أنه ذو شجاعة وإقدام ، وفصاحة وبلاغة ، وتعظيم للقرآن . فقال : «وله حسنات مغمورة في

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٣٤٣) .

بحر ذنوبه ، وأمره إلى الله ، وله توحيد في الجملة ، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء»[١].

وانظر إلى قوله عن أبي نواس وما اشتهر به من مجون وخمريات : «له أخبار وأشعار رائقة في الغزل والخمور ، وحظوة في أيام الرشيد والأمين . . . عفا الله عنه»[٢].

وإلى قوله عن بشار بن برد وما أثر من شكه وارتيابه في الدين : «شاعر العصر . . . بلغ شعره الفائق نحوا من ثلاثة عشر ألف بيت . . . ومدح الكبراء»[٣].

وإلى قوله عن الجاحظ المعتزلي وإغراقه في الاعتزال ، وإلى غيرهم ممن يخالفونه في المنهج أو الاعتقاد أو الفقه وأصوله . تجد الرجل آية في الاعتدال والإنصاف ، على ما هو شأن البشر ، الذين لا يبلغ أحدهم الكمال من كل جانب .

ولقد كان علاَّمة الترك الشيخ محمد زاهد الكوثري وكيل المشيخة الإسلامية في تركيا الذي ختم حياته في مصر ، بعد أن ألحقت تركيا قسرا بالركب العلماني ، وسيق الشعب بالحديد والنار إلى الحياة اللادينية ، وقوتل العلماء ، وشردوا من أجل ذلك ، ومنهم الشيخ الفقيه الحنفي المحدث الكوثري ، شيخ صديقنا العلاَّمة الفقيه الحنفي الحلبي المحدث عبد الفتاح أبي غدة ، وقد كان الكوثري يقول عن الذهبي كلاما كثيرا ويتهمه بأنه لم يكن منصفا في تراجمه لمن يخالفونه ، ولا منصفا في كل تراجمه لمن يحبونه ، ويحاول أن يستدل على ذلك من مصنفات الإمام الذهبي على خلاف ما عرفه الناس به طوال التاريخ .

وأنا مع إعجابي بالشيخ الكوثري ، ضاق صدري بما يقول ، وقلت لصديقنا وشيخنا أبي غدة رحمه الله : هل أنت مع شيخك الكوثري في هذا ؟

الحقيقة أني أجد نفسي ضده ، فالرجل عندي مثال يُحتذى في الحديث عن العباقرة والنوابغ . وهو يجتهد أن يوفيهم حقهم ، ولا يبخسهم حظهم ، وإن أخذ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٤٣/٤).
(٢) المصدر السابق(٢٧٩/٩، ٢٨٠) .
(٣) المصدر السابق (٢٤/٧، ٢٥) .

عليهم ما أخذ من شكوك أو سلوكيات . قال الشيخ : أنا معك في هذا ولست مع شيخي . ولقد تابعته في كثير من الشخصيات ، فلم أجد أكثر إنصافا منه ، حتى مع خصوم فكرته ، وأعداء جماعته . بل أعداء المسلمين وأهل الدين جميعا .

والحقيقة أن الحافظ ابن حجر رووا عنه أنه شرب ماء زمزم ليصل في معرفة الرجال وحفظهم إلى ما وصل إليه الذهبي ، ومع ما وصل إليه ابن حجر من رحاب العلم وأعماقه ، لا أعتقد أنه وصل إلى ما وصل إليه الذهبي ، فقد كان الذهبي مؤرخ الأمة كلها . محدثيها ومفسريها ، وفقهائها على اختلاف مذاهبهم ، وأصولييها ، ومتكلميها ، ومتصوفيها ، ونحويها ولغويها وسائر طوائفها ، إلى ملوكها وأمرائها وقوادها .

اختار أخونا وابننا الذي نقدم له : (الذهبي ومنهجه في نقد متن الحديث الشريف) وهذا أيضا قربني إلى الموضوع مرة أخرى . لأنه تعرض للحديث من جهة متنه ، وهو أحب إليّ من التعرض إلى سنده ، وإنه كذلك يقترب من الذهبي الناقد لعلم الحديث ، ومنهج النقد أحب إليّ من غيره .

لهذا أعجبت بدراسة الابن حسن ، التي قدمها إليَّ مطبوعة بالآلة الكاتبة على الورق الكبير ، فبلغت ٦٨٧ صفحة . ولكنها كلها محشوة علما حقا ، ينتفع بها كل من قرأها ، وكان عنده رغبة في تحصيل العلم واقتناصه حيث وجده .

تناول ابننا حسن في هذه الرسالة ثلاثة أبواب :

وقد جاء الباب الأول في ثلاثة فصول :

يقدم أولها وصفًا لحياة الإمام الذهبي وعصره ، وشيوخه ، وتلاميذه ، ومصنفاته ، وإذا كان هذا الفصل غالبا ما يكون تقليديًّا ، لا يكاد الباحث يضيف فيه إلا يسيرًا ، إلا أن الباحث آثر ألا يخلو من بعض الفوائد ، حيث فند بعض ما انتحل على الذهبي من المؤلفات مثل : (رسالة الذهبي إلى ابن تيمية) تلك الرسالة التي تحمل غلظة في القول ، وفظاظة في الوصف وتنكرًا لشيخه ورفيق دربه الذي اشترك معه في كثير من المواقف .

كيف يقبل العالم المنصف أن الذهبي قد جرى بهذه الرسالة قلمه ، وخطها بنانه ، وهو الذي يقول في شيخه وشيخ الإسلام : « فوالله ما مقلت عيني مثله ،

ولا رأى هو مثل نفسه . . . فارغًا عن شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه »[١] .

وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر رحمه الله ما يبين موقفه من ابن تيمية بوضوح . يقول الذهبي : « ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه ، وقد أوذيت من الفريقين : من أصحابه وأضداده ، وأنا لا أعتقد فيه عصمة ؛ بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية »[٢]

ومع ذلك الاختلاف ، فالذهبي يرى في شيخ الإسلام ابن تيمية نموذجًا قلما يتكرر ، ويرى أن مخالفيه إنما خالفوه عن هوى .

يقول الذهبي : « فوالله ما رمقت عيني أوسع علمًا ، ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال له : ابن تيمية ، . . . وقد تعبت في وزنه ، وفتشته حتى مللت في سنين متطاولة ، فما وجدت قد أخره بين أهل مصر والشام ، ومقتته نفوسهم ، وازدروا به وكذبوه وكفروه ، إلا الكبر والعجب ، وفرط الغرام في رياسة المشيخة ، والازدراء بالكبار » .

يعلق ابننا الباحث فيقول :

وبعد هذا يظن أن تكون تلك النصيحة الذهبية من تأليف الحافظ الذهبي؟! القلب يأبى هذا ، والعقل يرفضه ، والشواهد ترده وما يتمسك به إلا من يتخذ من هذه الرسالة ذريعة للنيل من الحافظ ابن تيمية ، رضي الله عن الأئمة الأعلام ، وغفر الله للجميع بمنِّه وكرمه ، آمين[٣] .

وكذلك فعل مع كتاب **(الطب النبوي)** ، و**(الكبائر)** ، و**(المنهج في مصطلح الحديث)** ، فشكر الله له !

---

(١) الذهبي ، المعجم المختص بالمحدثين ص٢٥ ، ٢٦ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة (١/١٥١) .

(٣) وقد أكد دكتور بشار عواد نسبة هذه الرسالة للذهبي ، ولم يعترض عليها وجعلها مما يؤيد وسطية الذهبي رحمه الله !! في كتابه : الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام ص١٤٦ ، وانتقدها الأستاذ عبد الستار الشيخ ودلل على زيفها وبطلانها في كتابه : الذهبي مؤرخ الإسلام ، ناقد المحدثين ص٣٥٠-٣٥٢ . ولابد من باحث أصيل يبحث بينهما .

وتناول الفصل الثاني ملامح المنهج النقدي عند الذهبي ، حيث جمع الباحث من الشواهد ما يدل على أن الذهبي ، قد جمع من المقومات ما هو عزيز وهو رأس مال الناقد المتجرد عن الهوى ، ومن ذلك :

الإنصاف : فمما تميز به الإمام الذهبي : الإنصاف ، وهو عزيز ، قليل من يتصف به ، ونادرٌ من ينخلع عن ذاتيته ومذهبه وآرائه أثناء مناقشته لبعض القضايا .

فعند حديث الحافظ الذهبي عن الإمام ابن حزم دافع عنه أمام خصومه ، ورأى حسناته مقارنة بأوهامه ، ووزن ذلك بميزان العدل والإنصاف ، وخلع عنه ثوب التحامل ، فقال في ترجمته : « ابن حزم رجل من العلماء الكبار ، فيه أدوات الاجتهاد كاملة ، تقع له المسائل المحررة ، والمسائل الواهية ، كما يقع لغيره ، وكل أحد يؤخذ منه ويرد عليه »[(١)].

والإمام يخالف ابن حزم في مسائل عدة ، ويتبرهن له خطؤه فيها ، ولكن ذلك لا يدفعه للتحامل عليه ، أو الغلو في نشر أخطائه والتغاضي عن صوابه ، يقول الذهبي :« ولي أنا ميل إلى أبي محمد ، لمحبته في الحديث الصحيح ومعرفته به ، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل ، والمسائل البشعة في الأصول والفروع ، وأقطع بخطئه في غير مسألة ، ولكن لا أكفره ولا أضلله ، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين ، وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه »[(٢)].

المرونة والاعتدال :

المرونة هي التي تميز الناقد المعتدل ، الذي لا غاية له سوى الوقوف على الحقائق ، دونما انحياز أو تعلق بأحد طرفي النقيض . والذهبي يعدُّ داعية إلى الاعتدال والتوسط راغبًا عن الإفراط ، معرضًا عن التفريط ، فلم يحتد الذهبي على إبراهيم بن سعد المدني لكونه يبيح سماع الملاهي ، ولم يجعل ذلك سببًا في طرح علمه ورواياته ، بل التمس له المعاذير ، ودافع عنه قائلاً : « كان يجوز سماع الملاهي ، ولا يجد دليلاً ناهضًا على التحريم ، فأداه اجتهاده إلى الرخصة ، فكان ماذا؟ »[(٣)].

---

(١) الذهبي ، تذكرة الحفاظ (١١٥٣/٣) .
(٢) الذهبي ، السير (٢٠٢/١٨).
(٣) الذهبي ، الرواة الثقات ص٣٧ .

الذهبي يناقش حفاظ الحديث :

حفل تاريخنا الإسلامي بعلماء أفذاذ جادوا بأعمارهم وأموالهم ، ورحلوا وارتحل الناس إليهم ، فأسهمت جهودهم في بناء ذلك الصرح العلمي الإسلامي ، وأثمرت تلك التضحيات ذلك التراث الهائل الذي نفاخر به الدنيا .

ومع كل ذلك فلا بد للسان من عثرة ، ولا بد للقلم من زلة ، ولا بد للعالم الجليل من كبوة ، وهذا هو الإنسان ، مخلوق تعتريه أوجه النقص ، وتحيط به من العوامل ما يجعله ينسى أو يزل ، وسبحان من له الكمال .

فالعالم الورع من يصوب الخطأ من غير أن يُشَهِّر بالمخطئ ، وأن يرشد المخطئ من غير أن ينزل من قدره ، وأن يبين أوهام المصنفات دون أن يهجر محاسنها ، مع التأني في القول ، والعدل في النقد .

وللإمام الذهبي رحمه الله في ذلك الحظ الوافر ، واليد الطولى

مثال : سنن ابن ماجه

كتاب سنن ابن ماجه سادس الكتب الستة ، تأخر ترتيبه ، وقل الاعتماد عليه ، حتى استبدل بعض العلماء به موطأ مالك ، كما عد آخرون أصول السنة خمسًا لا ستًّا ، متجاهلين كتاب الإمام القزويني .

وابن ماجه في نفسه حافظ ناقد صادق ، واسع العلم ، ثقة في نفسه ، كبير الشأن ، ولكن الذهبي يرى أن الذي « غضَّ من رتبة سننه ما في الكتاب من المناكير ، وقليل من الموضوعات »[1] .

ومن أشنع الموضوعات ما رواه ابن ماجه من رواية داود بن المحبر ـ واضع كتاب العقل ـ « **تفتح عليكم مدينة يقال لها قزوين ، من رابط فيها أربعين ليلة كان له في الجنة عامود من ذهب وزمردة خضراء ، على ياقوتة حمراء ، لها**

---

(١) الذهبي ، التاريخ (٢٠/٤٦٨) .

سبعون ألف مصراع من ذهب ، كل باب منها فيه زوجة من الحور العين »[١].

قال الذهبي : « فلقد شان ابن ماجه سننه بإدخال هذا الحديث الموضوع فيها »[٢] .

استقراء المصادر

الإمام الذهبي صاحب دعوة للتصفح والنظر في المصادر وعدم الاكتفاء بالنقل عن أصحابها ، فمن خلال تلك المطالعة وذلك البحث في المصادر الأصيلة ربما تتغير كثير من النتائج والمسلمات ، إنها المعرفة عن قرب ، وإنه التقييم الذي لا يتأثر بذاتية الآخرين .

فالإمام ابن عبد البر كان إمامًا دينًا ثقة متقنًا ، علاَّمة متبحرًا ، ومن خلال النظر في مصنفاته يقول الذهبي : « فإنه ممن بلغ رتبة الأئمة المجتهدين ، ومن نظر في مصنفاته ، بان له منزلته من سعة العلم وقوة الفهم وسيلان الذهن »[٣].

والحافظ الدارقطني له قدم السبق في قوة الحفظ وغزارة المعرفة وبراعة الفهم ، وقد عرف بالحديث عامة ، واشتهر بالعلل خاصة ، ويقرر الإمام الذهبي تلك الحقيقة ، من خلال مطالعة كتبه . يقول الذهبي : « وإذا شئت أن تتبين براعة هذا الإمام الفرد ، فطالع العلل له ، فإنك تندهش ويطول تعجبك »[٤].

وكما تدل المصنفات على آراء واتجاهات مؤلفيها ، فهي تعد دليل براءة مما يلصق بصاحبها من تهم ، وما يدعى عليه من أقوال أو ينسب إليه من آراء .

وقد شُنِّع على ابن جرير بالتشيع ، وأنه يجيز مسح الرجلين في الوضوء ، ولم يقبل الذهبي ذلك مستندًا إلى دليل النفي ، وهو خلو مصنفاته من ذلك فقال : « ولم نر ذلك في كتبه »[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٠) عن أنس بن مالك .

(٢) الذهبي ، الميزان (٢/٢٠) ، والتاريخ (١٤/١٥٠) . (٣) الذهبي ، السير (١٨/١٥٧).

(٤) الذهبي ، تذكرة الحفاظ (٣/٩٩٣ ، ٩٩٤) . (٥) الذهبي ، السير (١٤/٢٧٧) .

وفي الفصل الثالث، ألقى ابننا حسن الضوء على مقومات الإمام الذهبي العلمية، وكيف أخذ الإمام الذهبي بناصية علوم جمة، وحمل لواء معارف متعددة، ذكر منها:

مصطلح الحديث

فقد اهتم الذهبي بعلوم الحديث، وبها عرف، وكان لمصطلح الحديث شأن مع ذلك الإمام، فقد أفرد له بعض مصنفاته، ومن ذلك «الموقظة» التي اختصر فيها كتاب «الاقتراح» لشيخه ابن دقيق العيد، وظهر فيه من آرائه النقدية وتوجيهاته الاصطلاحية ما صبغ ذلك المختصر بروح الذهبي المعروفة في مختصراته، تلك الروح التي لا تعرف الاختصار الأعمى، بل ينتقد، ويضيف، ويهذب ويشرح.

وكذا «ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل»، و«الزيادة المضطربة»، و«العذب السلسل في الحديث المسلسل»، و«معرفة الرواة المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم»، و«من تكلم فيه وهو موثق»، إلى غير ذلك، إضافة إلى ما بثه في كتب التراجم والتواريخ والاختصارات وغيرها من مباحث تهتم بمصطلح الحديث وتعنى به.

الجرح والتعديل

الذهبي إمام في الجرح والتعديل ومعرفة الرواة، وله في ذلك الميدان آثار وآراء، يتعامل مع ذلك الباب تعاملاً غير تقليدي، وقد أصل القواعد في ذلك في مرونته المعهودة التي لا تعرف الجمود، وقد رد كثيراً من الطعون في الرواة إذا ثبت له أن ذلك عن تعنت، وقد رد الذهبي جرح أبي حاتم الرازي لأبي ثور الكلبي مع توثيق النسائي والناس له، واصفًا ذلك الجرح بالغلو[1]، أو عن اجتهاد ثبت خطؤه، فقد قوى الإمام شعبةُ محمدَ بن إسحاق وحجاج بن أرطاة،

---

(١) الذهبي، الميزان (١/٢٩).

وهما من أركان التدليس ، وقلل من شأن خالد الحذاء وهشام بن حسان ، وهما من رواة الصحيحين .

قال الذهبي : « هذا الاجتهاد من شعبة مردود ، لا يلتفت إليه ؛ بل خالد وهشام محتج بهما في الصحيحين ، هما أوثق بكثير من حجاج وابن إسحاق »[1] .

وكذلك رفض الجرح إذا كان الراوي أقوى وأثبت من المجرِّح ، أو إذا كان الجرح غير ثابت عن المجرِّح ، ورد كثيرًا من الجرح الغير مفسر إذا تفرد به الناقد .

وله في الجرح والتعديل مصنفات مشهورة ، على نتائجها عمل أهل العلم ، ومن تلك المصنفات « المغني في الضعفاء » ، و « ميزان الاعتدال » ، و« وتذهيب التهذيب » ، و« الكاشف » .

التاريخ :

الذهبي عالم بالتاريخ ، محيط بأحداثه ، له عناية خاصة به ، وقد تأثر بذلك في نقده للمتون ، فهو في تحليله للنص لا يغفل عن القرائن والأحداث التاريخية ، وله دُرْبة واسعة بالتاريخ ، فقد ألف في ذلك مصنفات هي العمدة عند الباحثين في التاريخ ، ومن ذلك التاريخ الكبير وسير أعلام النبلاء وغير ذلك .

وفي الباب الثاني بدأ الباحث **فصله الأول** متعاملاً مع صلب موضوعه عندما عرض للتطور التاريخي لنقد متن الحديث الشريف عبر القرون ، حتى وصل إلى القرن الثامن (عصر الذهبي) . وذكر أعلام المحدثين في كل قرن ممن كان لهم إسهامات في علم نقد المتون ، وتطبيقاتهم العملية في نقدهم الإيجابي أو السلبي .

وفي الفصل الثاني تعرض لمباحث نقدية مهمة ، منها الطرق النقدية الاحتياطية لصيانة متن الحديث الشريف ، ومنها ضبط الراوي زمن التحمل والأداء ، وتعرض لمقومات الضبط ، ومظاهر اختلاله ، ومنها الرواية بين اللفظ والمعنى .

وتحدث أيضًا عن مقاييس نقد متون السنة ، وقسمها إلى :

---

(١) الذهبي ، الميزان (١٩١/٦) .

١- **مقياس المقارنة** ، وذكر فيها خلاف القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وخلاف فتوى الصحابة وخلاف الإجماع ، وخلاف الواقع ، وخلاف التاريخ الصحيح ، وخلاف الإجماع .

٢- **المقياس العقلي** ، وذكر فيه التحديث بما لا يجوز مثله ، وما لا يشبه ألفاظ النبوة ، وخلاف الأوثق ، وخلاف المشاهد المحسوس ، وارتباط المتن باعتقاد الراوي العقدي والفقهي .

ثم شرع يتحدث عن نقد متن الحديث من حيث المبنى،فذكر التصحيف، وأسبابه وأقسامه ، وأثره في الفقه الإسلامي . وذكر الإدراج ، وأسبابه وأقسامه ، وعلاماته . وذكر زيادة الثقة ، وتفاوت الثقات ، وأسباب الزيادة ، وحكمها . وكذلك الاضطراب والقلب والحديث المعلل .

وذكر بعد ذلك نقد الحديث من حيث المعنى ، فتحدث عن غريب الحديث ، ومختلف الحديث ، والناسخ والمنسوخ ، وأسباب ورود الحديث ، وفقه الحديث ، والحديث الموضوع .

ولعل هذا الفصل يمثل الاتجاهات النظرية ، أو التقعيد النظري لمباحث نقد متن الحديث الشريف .

وفي الفصل الثالث تعرض الباحث للصحيحين ، مبينا مكانتيهما عند المسلمين ، مدافعًا عن صحتهما أمام من أطلق العِنان لنفسه للخوض فيهما ، من غير المتخصصين ، مفرقًا بين حرية التفكير ، والتحرر من المبادئ .

وهو مع ذلك لا يغض الطرف عن بعض مشكلات الصحيحين ، فلا ينعزل عن أقوال نقاد الحديث من أهل النقد وأئمة العلل ، فلا يقول بعصمة صاحبي الصحيح من الخطأ مطلقا ، فهم بشر ، ويؤكد أن عملهم واختيارهم قابل للمناقشة ، ولكن مناقشة المتخصصين من نقاد الحديث وجهابذته ، لا المتطفلين على موائد المحدثين ، من الذين حاربوا النقل باسم العقل ، ووضعوا جدارًا منيعًا بين العقل والنقل ، مع أن علماءنا يرون أن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح . وألف

ابن تيمية كتابه الكبير في عشرة أجزاء في (درء تعارض العقل والنقل) . وقد عقد القاضي عياض في كتابه مشارق الأنوار فصولاً لبيان بعض أوهام رواة البخاري ومسلم رحمهما الله ، وبيان الرواية الصحيحة الخالية من الوهم والخطأ ، وبالرغم من انتقاد هؤلاء الحفاظ لتلك الأحرف ، فمن الملاحظ أن الانتقاد لم يكن لأصول تلك الروايات ، وإنما لبعض الكلمات في تلك الرواية مع التسليم بأصل الرواية ، كما أن هناك من المحدثين من لم ينتقد تلك الأحرف وتأولها . ومن راجع الشروح تبين له ذلك .

فقد انتقد الحافظ حديث أبي هريرة مرفوعًا : « قال الله عز وجل : من عادى لي وليًّا فقد آذنني بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه » ، وفيه : « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ».

قال الذهبي : « فهذا حديث غريب جدًّا ، لولا هيبة الجامع الصحيح لعدوه في منكرات خالد بن مخلد ، وذلك لغرابة لفظه ، ولأنه مما ينفرد به شريك وليس بالحافظ »[(١)].

وانتقد الإمام الذهبي رحمه الله حديث عكرمة بن عمار ، عن أبي زميل ، عن ابن عباس قال : « كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه ، فقال : يا نبي الله ، ثلاث أعطينهن قال : نعم . قال : عندي أحسن العرب وأجملهن أم حبيبة أزوجكها . قال : نعم . قال ومعاوية تجعله كاتبًا بين يديك . قال : نعم . قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار »

حكم عليه الحافظ الذهبي بالنكارة ، فقال في ترجمة عكرمة بن عمار ، فقال : « ساق له مسلم في الأصول حديثًا منكرًا ، وهو الذي يرويه عن سماك الحنفي عن ابن عباس في الأمور الثلاثة التي التمسها أبو سفيان من النبي ﷺ »[(٢)] . ثم حكم عليه بعدم الصحة مع كونه في صحيح مسلم[(٣)] .

---

(١) الذهبي ، الميزان (٦٤١/١) .
(٢) الذهبي ، السير (١٣٧/٧) .
(٣) المصدر السابق (٢٢٢/٢) .

وأورد ابننا الدكتور حسن نماذج من الانتقادات على الصحيحين ، بعضها ظهر فيه وهم المنتقدين ـ وهو أكثرها ـ وبعضها استشكل فتنازع فيه المصححون والمضعفون ، وكل فريق له ما يؤيد نظرته ، فمن أخذ بظاهر المتن اندفع إلى توهيم الرواة ، ومن تأول معناه نزع إلى تصحيح الرواية . والقسم الرابع ما ثبت فيه الوهم من الشيخين أو أحدهما رحمهما الله تعالى ، وهو نادر جدا .

وفي الباب الثالث كانت الدراسة العملية عن نقد المتن ، فتناول **الفصل الأول** من هذا الباب علاقة المتن بالإسناد عند الذهبي .

فالمرويات (المتون) تارة تشكِّل معيارًا لتقييم الرواة ومعرفة منازلهم ، وقد ظهر ذلك جليًّا في الحكم على الرواة المجهولين ، فقد تم معرفة أحوال ضبطهم أو وهمهم من خلال المتون التي رووها .

وقد أكد على ذلك الذهبي رحمه الله ، وبين أن المتون المنكرة يضْعُف الراوي من أجلها ، فقد ضعَّف المحدثون أحمد بن نصر الذارع ، قال الذهبي : « روى عن الحارث بن أبي أسامة وطبقته ، فأتى بمناكير تدل على أنه ليس بثقة . وذكر من ذلك حديث علي مرفوعًا : « يا علي إنما سمى نخل المدينة صوحانيًّا لأنه صاح بفضلي وفضلك »[(١)] .

وروى الحارث بن عمير من حديث علي ﷺ مرفوعًا : « إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران ... لما أراد أن ينزلهن تعلقن بالعرش فقلن : يا رب! تهبطنا إلى من يعصيك . . . » الحديث .

قال الذهبي : « تفرد به الحارث ، وبمثل هذا الحديث المنكر نالوا منه »[(٢)].

كما أن نظافة السند لا تعني صحة المتن مطلقًا ، فكم من إسناد ساطع كالشمس يحمل متنًا باطلا ، وهذا ما يرصده علماء العلل وجهابذة النقاد ، ووجدنا الذهبي لا تأسره جودة الأسانيد ، ولا يغتر بحسنها قبل أن يحاكم تلك

---

(١) الذهبي ، الميزان (١/١٦١) .

(٢) الذهبي ، العلو للعلي الغفار ص٧٣ .

المتون لدلالات التشريع الخالد والحكمة النبوية ، ولذلك فكثيراً ما ينتقد المتن مع صحة الإسناد .

فقد روي عن علي ﷺ قال : يا رسول الله ، تفلت القرآن من صدري ، قال : **أفلا أعلمك كلمات تثبت ما تعلمت في صدرك!** فقال : أجل ، **قال : إذا كانت ليلة الجمعة ، فقم بأربع ركعات تقرأ فيهن : يس ، والدخان ، وتنزيل ، وتبارك ، ثم تدعو . . .** » الحديث .

قال الذهبي : « مع نظافة سنده حديث منكر جداً ، في نفسي منه شيء »[١] .

وقال في موضع آخر : « حيرني والله جودة سنده »[٢] .

وجاء الحديث في **الفصل الثاني** عن : **النقد الإيجابي للمتن عند الذهبي ، وضمنه مباحث منها :** شرح المتن ، والاستنباط من النص ، وتصويب فهم ، ودفع التعارض ، ودفاع عن صحة متن ، وذكر ما صح في الباب .

وكذلك ذكر **النقد السلبي للمتن عند الذهبي :**

وأشار الباحث إلى دلائل تضعيف المتن عند الذهبي ، ومنها :

معارضة الصحيح الثابت من المرويات ، فقد روي من حديث أبي هريرة : « **اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إليَّ ، فأسكني أحب البلاد إليك ، فأسكنه الله المدينة** » ، **قال الذهبي** : « موضوع ، فقد ثبت أن أحب البلاد إلى الله مكة »[٣] .

وخلاف المعلومات التاريخية الثابتة إن مخالفة المتن للمعلوم من الحوادث التاريخية التي اتفق عليها العلماء ، وتواترت عند أهل التواريخ يعد قدحًا في الرواية ، وقرينة على تسرب الوهم إلى أحد رواة الحديث ، ودلالة على عدم قبول ذلك المتن .

---

(١) الذهبي ، الميزان (٢/٢١٣) .

(٢) الذهبي ، تلخيص المستدرك (١/٤٦١) .

(٣) الذهبي ، المستدرك (٣/٤) .

فمن ذلك حديث هشام بن عروة ، عن أبيه قال : «مر ورقة بن نوفل ببلال ، وهو يعذب على الإسلام . يلصق ظهره بالرمضاء ، وهو يقول : أحد أحد ، فقال : يا بلال صبرًا ، والذي نفسي بيده ، لئن قتلتموه لأتخذه حنانًا» ، **قال الذهبي** : «لم يعش ورقة إلى ذلك الوقت»[١] .

ومخالفة الواقع ، وقد تخالف الرواية الواقع الذي لا يختلف فيه اثنان ، ممن شهدوا ذلك المشهد ، فيكون اتفاق العلماء على ذلك من أدلة الخطأ في الرواية ؛ إذ التناقض بين الرواية الصحيحة والواقع المجمع عليه يوهن الحديث ، ويشكك في صحة نسبته للنبي ﷺ .

ومن ذلك حديث ابن عباس ﷺ : «أسلم العباس بمكة قبل بدر ، وأسلمت أم الفضل معه حينئذٍ ، وكان مقامه بمكة ، إنه كان لا يغبي على رسول الله ﷺ بمكة خبر يكون إلا كتب به إليه ... ولقد كان يطلب أن يقدم ، فكتب إليه رسول الله ﷺ : إن مقامك مجاهد حسن ، فأقام بأمر رسول الله ﷺ» ، **قال الذهبي** : «ولو جرى هذا لما طلب من العباس فداءً يوم بدر ، والظاهر أن إسلامه كان بعد بدر»[٢] .

وخلاف المعقول ، ومن ذلك حديث ميمونة مولاة رسول الله ﷺ قالت : «يا رسول الله ، أفتنا في بيت المقدس . قال : **ائتوه فصلوا فيه ، فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيت يسرج في قناديله**» . **قال الذهبي** : «هذا خبر منكر ، وكيف يسوغ أن يبعث بزيت ليسرجه النصارى على التماثيل والصلبان ؟! وأيضًا فالزيت منبعه من الأرض المقدسة ، فكيف يأمرهم أن يبعثوا به من الحجاز محل عدمه إلى معدنه ؟! ثم إنه عليه السلام لم يأمر بوقيد ولا بقناديل في مسجده ولا فعله»[٣] .

ومشابهة كلام القصاص انتشر القصاص في الدولة الإسلامية ، وتطور أسلوب أدائهم ، فبينما كانت صورة القاص في الزمن الأول ذلك الواعظ الذي يذكّر

---

(١) الذهبي ، السير (٣٥٢/١) .
(٢) الذهبي ، السير (٩٨/٢ ، ٩٩) .
(٣) الذهبي ، مهذب السنن [١/ق٢٩١-ب] .

المسلمين بالحساب ، ويحثهم على العمل الصالح ، ويرغبهم في الآخرة ، ويزهدهم في الدنيا ، فإن صورته بدأت تتغير شيئًا فشيئًا ، حتى بلغ الحال بهم في بعض العصور ، إلى صورة متكففة لأموال الناس ، متسول لما في أيديهم ، يبيع آخرته بدنياه ، ويتفنن في وضع الحديث ، وافتراء الحوادث التي لم تكن ، مازجًا ذلك بالمؤثرات التي تجلب الدمع ، وتثير العواطف ، لعلمه أنه كلما جاشت المشاعر زاد العطاء .

تميز كلام القصاص بسمات خاصة ، وقد عد المحدثون مشابهة متن الحديث لذلك الأسلوب ، من دلائل تضعيف ذلك المتن ، وطرح الثقة به .

ومن ذلك ما جاء أيضًا في حديث أبي شحمة وفيه : « كانت امرأة تدخل على آل عمر معها صبي ، فقال : من ذا الصبي معك ؟ فقالت : هو ابنك ، وقع عليَّ أبو شحمة فهو ابنه ، فأرسل إليه عمر فأقر . فقال لعلي : اجلده . فضربه خمسين ، وضربه عمر خمسين . فقال : يا أبه قتلتني . فقال عمر : إذا لقيت ربك فأخبره أن أباك يقيم الحدود » ، **قال الذهبي** : « هذا وضعه القصاص »[1] .

وتحدث ابننا حسن عن مظاهر الوهم في متن الحديث الشريف ، ومنها : رفع الموقوف ، والزيادة غير الثابتة ، والتصحيف ، والإدراج .

وفي **الفصل الثالث** تحدث عن نقد المتن عند معاصري الإمام الذهبي ، ذكر فيه الباحث الاتجاه النظري والتطبيقي لنقد المتن عند ابن تيمية وابن القيم وابن كثير . وهو فصل ينبغي أن يُقرأ ويستفاد منه ، ففيه خير وعلم كثير ، وإن كنا لا نحتاج إلى ضرب أمثلة له ، فحسبنا ما حصلنا هنا ، وقد استفدنا من أخينا حسن كثيرًا لوجوده معنا .

ومما أعجبني في هذه الرسالة : أنها رسالة مُلئت علمًا ، وملئت نقدا ، وملئت صدقا .

---

(١) الذهبي ، ترتيب الموضوعات ص٣١٧ رقم١١٥٧ .

أما العلم فهو علم موثق ، علم الحافظ الذهبي ، الذي ملأ الدنيا ، وأخذ عنه الناس في عصره ، ومن بعده ، وهم مطمئنون أنهم اغترفوا من بحر زخَّار ، واقتبسوا من سراج وهَّاج .

وأما النقد ، فإن علم الذهبي ليس مجرد علم يقوم على الحفظ واختزان الذاكرة ، بل هو علم عالم يفكر بحرية وأصالة ، ويعمل عقله فيما يحفظه وما ينقله ، ولذا رأيناه ينتقد العلماء الكبار ، من الأئمة والفقهاء والمحدثين ، والمؤرخين واللغويين وغيرهم ، ولكن بأدب العالم ، ولغة المتقن ، وما كان ـ رحمه الله ـ سبابا ولا فحاشا ، على نهج حبيبه ومعلمه محمد ﷺ .

حتى إن بعضهم أراد أن يسيئ سمعته ، فنسب إليه رسالة غليظة خشنة ، لا يليق أن تصدر عنه ، وحاشاه من ذلك .

إن الرجل على ما عرفته طوال حياتي ، وعلى ما عرفته من هذه الرسالة العلمية الحافلة ، لا أجد فيه إلا أنه كان من الربانيين الصادقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

(الأحزاب:٣٩)

كل ما آخذه على هذه الرسالة بعض الأغلاط الإملائية والنحوية ، ولعل بعضها طباعيا مما يقع فيه أكثر الخريجين في عصرنا ، وإن كان الأخ حسن أصح وأحسن كثيرًا من غيره ، وهو ما نرجو لهم أن لا ييئسوا منه ، ويعودوا إليه ، ويتقووا فيه ، ومن طلب شيئًا وجده ، ومن سعى إلى شيء بجد حصَّله ، وقد حفَظُونا من قديم : من جد وجد ، ومن زرع حصد .

وقد سألني بعض الشباب من زملاء الدكتور حسن : ألا توجد عندك ملاحظات على هذه الرسالة؟ فقلت لهم : كل عمل يقوم به البشر ، لابد لمن يبحث فيه أن يجد فيه شيئًا يجب أن يزاد فيه ، أو ينقص منه ، أو يكون أكمل مما بدا له ، إلخ ، ولكني وأنا أقرأ هذه الرسالة كنت معجبًا بها ، قرير العين بقراءتها ،

منشرح الصدر بما أجده فيها ، فقد شفت غليلي ، وروت ظمئي ، وأدعو لصاحبها بالمزيد من هذا التوجه الإيجابي الذي نحتاج إليه في علومنا وفي مناهجنا ، وفي حياتنا كلها .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

دكتور
يوسف القرضاوي
الفقير إلى عفو ربه

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحديث عن السنة النبوية المطهرة تمتزج فيه البسمة بالعَبرة ؛ إذ علت أصوات ذات نبرات جافية تشكك في حجية السنة ، وسُلَّت أقلام بمداد من حقد أسود أو جهل مفرط تهاجم السنة في أقوى حصونها : الصحيحين ، ومع اختلاف الدوافع والأهداف إلا أن وحدة التوجه قد جمعت تلك الطوائف في خندقٍ واحد .

وصار حرم السُّنة المشرفة كلأً مباحًا للصحفيين والإذاعيين و . . . بل وكل من رام شهرة رخيصة في زمن قد نطق فيه الرويبضة وتحدث فيه لكع بن لكع .

أضف إلى ذلك ما نراه اليوم من مظاهر الجفاء بين الأمة ونبيها الخاتم وقائدها الأعظم ﷺ ، إذ تهاون الكثير في سنته ، ورغب العديد عن سيرته ﷺ .

وفي الوقت ذاته هاهي مظاهر صحوة مباركة ، وعودة ميمونة إلى ذلك المعين الصافي ، والمورد العذب ، سلوكًا وعملاً ، دعوةً وفكرًا .

هاهي حركة تحقيق التراث الإسلامي عامة ، والحديثي خاصة تملأ سمع الدنيا وبصرها ، وهاهي شمس البحوث الحديثية تسطع من جديد ، فالله حافظ دينه ، ومخلد سنة نبيه ، ومقيض لها من يحفظها ويبلغها ، ويذود عنها ، ويدفع ما ألصق بها .

● مكانة النبي ﷺ

رسول الله ﷺ خاتم النبيين وإمام المرسلين ، صاحب الحوض المورود ، واللواء المحمود ، قد تضافرت آيات الكتاب العزيز لبيان مكانته ووجوب طاعته ، كما تتابعت الآيات تحذر من مخالفة أمره ، وتتوعد من ينكث عن اتباع هديه ، فما نطقه ﷺ وقوله إلا بوحي ، وما فِعله وسلوكه إلا بتوقيف وتشريع .

كما نزه الله تعالى مصطفاه عن العبث ، وألزم أتباعه الانقياد لأمره ، والإذعان لنهيه ، فهو الأسوة والقدوة . وقرن الله تعالى سنته بالقرآن الكريم ، وبيَّن أن النبي ﷺ يهدي إلى طريق مستقيم .

قالِ تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء: ٨٠) .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر:٧) .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:٣١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى:٥٢) .

وقال سبحانه : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور:٦٣).

وقد فهم سلف الأمةِ ذلك ، فاقتفوا أثره ، وتنافسوا على اتباع سنته والالتزام بهديه ﷺ .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به ، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»[(١)].

ووقف الفاروق رضي الله عنه يخاطب الحجر الأسود قائلاً : «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[(٢)].

وجاء رجل لعمران بن الحصين مستنكرًا التحدث عن رسول الله ﷺ ، وزاعمًا أن تلاوة آيات القرآن تكفي المسلمين فقال عمران بن الحصين رضي الله عنه : «أرأيت إن أبيت أنت وأصحابك إلا القرآن ، من أين كنت تعلم أن صلاة الظهر عدتها كذا وكذا ، وصلاة العصر عدتها كذ وكذا ، وحين وقتها كذا . . . والموقف بعرفة ورمي الجمار . . . »[(٣)].

ويتحدث الشافعي عن السنة الصحيحة الثابتة ووجوب الانقياد لها قائلاً : «وإذا ثبت عن رسول الله ﷺ الشيء ، فهو اللازم لجميع من عرفه ، لا يقوِّيه ولا يوهنه شيء غيره ؛ بل الفرض الذي على الناس اتباعه»[(٤)].

---

(١) البخاري ، كتاب فرض الخمس (٦/٢٢٧ رقم ٣٠٩٣) ، ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب قول النبي ﷺ : «لا نورث . . . » (٣/٢٤٠ رقم ١٧٥٩).

(٢) البخاري ، كتاب الحج ، باب ما ذكر في الحجر الأسود (٣/٥٤٠ رقم ١٥٩٧).

(٣) الخطيب ، الكفاية ص١٥ .

(٤) الشافعي ، الرسالة ص٣٣٠ ، رقم ٩٠٥ .

ويحكي الحافظ ابن تيمية الإجماع على ذلك فقال عن العلماء المتبعين : « فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًا على وجوب اتباع الرسول ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ »[١].

ورسول الله ﷺ في سنته بيْن مُبيِّن لمراد الحق سبحانه في كتابه ، وبين مشرِّع لأحكام ليست في القرآن الكريم ، وإنما كان قوله ﷺ تشريعًا لأمر الله تعالى باتباع أمره .

قال الإمام أحمد رحمه الله : « إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه . . . جعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه ، وخاصه وعامه ، وناسخه ومنسوخه ، وما قصد له الكتاب ، فكان رسول الله ﷺ هو المعبِّر عن كتاب الله ، الدال على معانيه »[٢].

وقال الشافعي : « إن الله جل ثناؤه وضع رسوله موضع الإبانة لما افترض على خلقه في كتابه ، ثم على لسان نبيه ﷺ ، وإن لم يكن ما افترض على لسانه نصًّا في كتاب الله ، فأبان في كتابه أن رسول الله ﷺ يهدي إلى طريق مستقيم صراط الله ، ففرض على العباد طاعته ، وأمرهم أخذ ما آتاهم والانتهاء عما نهاهم عنه ، وكان فرضه على كل من عاين رسوله ومَنْ بعده إلى يوم القيامة واحدًا ، في أن على كلٍّ طاعته »[٣].

وإذا تجاوزنا العلماء العاملين إلى عموم الأمة ، فإن حب النبي ﷺ يسري في العروق ويختلط بالدماء ، وكم تشتاق النفوس لزيارة مدينته والصلاة في مسجده ، والأنس في روضته والسلام عليه في قبره العاطر .

وكم لهج المحبون بمدحه ﷺ قديمًا وحديثًا ، ومن ذلك ما جاء في لامية كعب بن زهير ، وفيها :

أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

---

(١) ابن تيمية ، رفع الملام عن الأئمة الأعلام ، ص١٠ ، المكتب الإسلامي ط . ٣ ، ١٣٩٠هـ .

(٢) ابن القيم ، أعلام الموقعين (٣٦٧/٢)، تحقيق طه عبد الرءوف ، مكتبة الكليات الأزهرية .

(٣) الشافعي : اختلاف الحديث ص٣٥ ، تحقيق عامر أحمد ، مؤسسة الكتب الثقافية .

وقال الكميت :

وأنت أمين الله في الناس كلّهم ... عليها وفيها اختار شرق ومغرب
فبوركت مولودًا وبوركت ناشئًا ... وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

ومن ذلك ما قاله البوصيري في ميميته :

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم
فاق النبيين في خَلق وفي خُلقٍ ... ولم يدانوه في علمٍ ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفًا من البحر أو رشفًا من اليمم
دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من قدر ... وانسب إلى قدره ما شئت من كرم
فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم
فمبلغ القول فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

إلى غير ذلك مما يقصر عن بيانه المادحون، ويعجز عن التعبير عنه المحبون.

● **من حقوق النبي ﷺ**

الرسول ﷺ أفضل الخلق ، وحبيب الحق سبحانه ، لم يُرَ في الوجود نفسًا أسمح ، ولا عقلاً أرشد ، ولا طبيعة أجود ، ولا فطرة أزكى منه ﷺ ، كان الحلم والعفو من سجاياه ، وتحمُّل العنت والصبر على الشدائد من خلقه ومزاياه ، ضرب المثل الأعلى في كل الميادين فهو الراهب العابد ، وهو الغني الزاهد ، في الحرب أسدٌ هصور ، وفي السلم رحيمٌ غفورٌ ، زوج مخلص ، وأب حان ، وجدٌّ عطوف ، وصهرٌ لبيب ، تخلّق بخلق ربه فصار العدل أنزل أحواله ، فصفح عن المسيئ وبادله بالسوء إحسانًا ، لم ينس الأرملة واليتيم والمسكين ، ولم يتكبر على ضعيف أو فقير أو عاجز ، آذاه قومه فصبر ، وأدموا قدميه فغفر ، وناصبوه العداء فلم يَعْدُ أن قال : «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» .

آذوه في نفسه وأصحابه وآل بيته ، فلما مكنه الله منهم قال : «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

صبر على شظف العيش وقلة المأكل والملبس ، ورضي أن يعيش بين أصحابه كأحدهم ، كانت نفوس الملوك والزعماء تتوق إلى الملك والزعامة ، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى الآخرة .

عبَدَ الله حتى تورمت قدماه ، وبكى من خشيته ومن لذة المناجاة ، لم يُعرف له ﷺ ساعة راحة ، أو وقت دعة ، ولم يُعرف عنه أنه ضحك ملء فيه وقلبه ، وإنما هي ابتسامات تكشف عن ثناياه ونواجذه . فهو يؤم المصلين ، وينشر العلم ، ويستقبل الوفود ، ويدعو المشركين ، ويجهز السرايا ، ويعبئ الجيوش ، ويوزع الزكاة ، ويقسم الغنائم ، ويعود المريض ، ويتبع الجنائز ، ويتفقد الغائب ، ويتحمل عن المدين ، ويطعم الطعام ، ويلاطف الأسير ، وينصت للمتكلم ، ولا يدع يده من يد من يصافحه حتى يدع الآخر ، يرعى حقوق أزواجه على كثرتهن ، ويهتم بأمور ذريته ، يصلح نعله ، ويرقع ثوبه ، ويكون في مهنة أهله ﷺ.

فتحت عليه الدنيا فكان نصيبه منها كأقل أصحابه ، وكان يهرب منها قائلاً : «**ما لي وللدنيا!**» ، لم يعرف له حاجب يمنع الناس عنه ، ولم يكن لصيقًا بطبقة دون أخرى ، بل كان الضعيف والفقير واليتيم وذو الحاجة أقرب الناس إليه ، فبأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فداك روحي ودمي ما أعظمك وما أجلك ، اللهم آته الوسيلة والفضيلة ، والدرجة العالية الرفيعة ، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد .

وكما قيل : الحق ما شهدت به الأعداء ، فقد اعترف بعظمة محمد ﷺ أعداء الإسلام ، ولم ينكر فضله أصحاب الملل المحرَّفة والنِّحل الباطلة ، فقال أحدهم : العظماء في العالم مائة وأعظمهم محمد ﷺ .

وقال الآخر : لو أن محمدًا ﷺ يحيا بيننا الآن لاستطاع أن يحل مشاكل العالم وهو يرتشف رشفة من فنجان قهوة .

وغير هذه الشهادات كثير وكثير ، كما أننا لسنا بحاجة لسرد أقوال مخالفيه في مدحه والثناء عليه وإطرائه والإعجاب به ، فقدر رسول الله عال ومنزلته رفيعة ومكانته سامقة ، فقد زكّاه الله من فوق سماواته قائلاً : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾ (النجم:٣) ، وقال عز وجل : ﴿ **عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ** ﴾ (النجم:٥)، وقال سبحانه : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم:٤) .

● **من مظاهر الجفاء :**

ولكن مع بعد الزمن وتقاصر الهمم ، وبسط الدنيا نفوذها وسلطانها على قلوب الكثيرين ، والانشغال بحطام زائل وزخرف عاجل تحولت تلك المحبة

للنبي ﷺ إلى ذكريات ، وصارت سيرته العطرة كلمات تقال في المناسبات ، وقَلّ مشمر للاتِّباع أو جادٌ في الاقتداء ، وصار الهجر والجفاء لروح السنة لا ألفاظها ، فكم من عالم بالسنة غير عامل بها ، وكم من حاملٍ أسفارًا لا يدري ما فيها .

أضف إلى ذلك التقليل من شأن السنن : الواجبة والمؤكدة والمندوبة ، والنظر إليها دون اهتمام والتحدث عنها بلا اعتناء ، وعدم الحرص على تعلمها أو البحث عنها ، وكذلك تجرؤ البعض ـ دون معرفة بالسنن ، أو علم بالشريعة ـ على الأحاديث الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول،والتي أثبتها نقاد الحديث،أو لكونها أحاديث آحاد ، إلى غير ذلك من دعاوى لا تثبت أمام البحث والمحاققة .

ومن ذلك العدول عن السنن وعدم الاقتداء بالسيرة النبوية المطهرة إلى آراء وأقوال كثيرين من الساسة والحكماء والمفكرين ، وتقديم آراء هؤلاء بين يدي الله ورسوله ؛ بل إن هيبة كلام النبي ﷺ كمصدر تشريع ، ولسان وحي آخذة في الانتزاع شيئًا فشيئًا ، فقد كان ذكر اسم النبي ﷺ أولاً يرقق القلوب ويحرك المشاعر ، ويبعث على التوقير والاحترام ؛ فأين الأدب مع النبي ﷺ عند قومٍ يعرضون السنَّة مع أهواءهم ، فيختارون ما تقبله طباعهم ، ويدعون ما يتعارض مع رغباتهم؟! أين ذلك التوقير مع تنصيب كلٍّ نفسه للحكم على الأحاديث النبوية بالقبول والرد ، والصحة والضعف ، رحم الله أمة الإسلام ، وطهَّر ساحتها من كل دَعيٍّ متسلق .

● **حب النبي وسام المحبين :**

حب النبي ﷺ من أصول الدين ، ولا يكتمل إيمان عبد حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وقد توعَّد الله تعالى من يقدم حب الآباء والأبناء والزوجات والمال والممتلكات على حب الرسول ﷺ ، ووصفهم بأنهم فاسقون .

وبيَّن النبي ﷺ أن محبة الله والرسول هي السبيل للشعور بحلاوة الإيمان ، فقد قال زيد بن الدثنة وهو في انتظار أن تضرب عنقه : «والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وإني جالس في أهلي»[1].

---

(١) ابن الجوزي ، صفوة الصفوة (١/٦٤٩).

وقام سادة المهاجرين والأنصار يوم بدر بين يدي النبي ﷺ قائلين : «لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك ، نقاتل بين يديك ومن خلفك ، وعن يمينك وعن شمالك» .

وقد وصف عروة بن مسعود حال الصحابة بين يدي النبي ﷺ قائلاً : «والله إنْ تنخَّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإن أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له»[١].

● **دلائل المحبة :**

ما أرخص المحبة إن كانت قولاً ، وما أيسر الادعاء إن كان عاريًا عن الحقيقة! وكثيرًا ما تُدَّعى المحبة ، فإن دققت النظر انكشف الزيف وظهر الانحراف .

فالحب صدق ورحمة ، ووفاء وإخلاص ، والمحبون لا يعرفون قسوة أو خيانة ، ولا غدرًا أو عدوان ، لا تدفعهم مصلحة ، ولا يمنعهم ألم ، الحب مسطور في العيون بمداد من الدموع والعبرات ، يجمع أحدهم بين لظى الشوق وبرد السكينة ، لا يرى إلا بعين المحب ، ولا يتكلم إلا بلسانه ، ولا يفكر إلا بعقله ، ومن أحب المصطفى ﷺ حبًا صادقًا ظهر ذلك على فكره ولسانه وجوارحه ، فهو دائم الفكر في اتباعه ، ودائم الذكر له ولأقواله ، ودائم العمل بمقتضى سنته وبيانه .

ومن ذلك تقديم النبي ﷺ وتفضيله على كل أحد والثناء عليه والإكثار من ذكره والتشوق لرؤيته ، والتحدث بخصائصه ومعجزاته ، وبيان منزلته وصفاته ، ومكانته وأخلاقه ، والحديث عن سيرته وغزواته ، مع التأدب عند ذكره ، وتوقير حديثه ، وعدم التقدم بين يدي قوله أو فعله ، مع تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ، والتحاكم إلى سنته والدفاع عنها ، ونشر هديه وطريقته .

ومن ذلك الخروج من النطاق اللفظي إلى آفاق الاتجاه العملي فعلم بلا عمل كنز لا ينفق ، قال الخطيب :«العلم شجرة والعمل ثمرة» ، وقال بعض الحكماء : «العلم خادم العمل ، والعمل غاية العلم ، فلولا العمل لم يطلب علم»[٢].

---

(١) البخاري ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٥٢٩) .

(٢) الخطيب : اقتضاء العلم العمل ص١٤، ١٥، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط . ٥ ، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م .

وكما أن الأموال دون إنفاق كالعدم ، فإن لمعرفة بالسنن وحفظ ألفاظها وفهم مضمونها لا قيمة له إن لم يعمل بها .

قال محمد بن المنكدر : « العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل »[١].

وقديمًا قيل :

اعمل بعلمك تغنم أيها الرجل ... لا ينفع العلم إن لم يحسن العمل

والعلم زين وتقوى الله زينته ... والمتقون لهم في علمهم شغل

وحجة الله يا ذا العلم بالغة ... لا المكر ينفع فيها لا ولا الحيل

قال أبو الدرداء : « إن أخوف ما أخاف على نفسي أن يقال لي : يا عويمر ، هل علمت؟ فأقول : نعم ، فيقال لي : فماذا عملت فيما علمت؟ »[٢].

ومن ذلك العمل بمقتضى السنة دون تحريف ، ولا ينبغي أن يحمَّل النص غير ما يحتمل لموافقة هوى أو مذهب ، قال ابن القيم : « ينبغي أن يفهم عن رسول الله ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يُحمَّل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراده ، وما قصده من الهدى والبيان ، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله »[٣].

ومع الخلافات الفقهية التي وقعت بين أكابر الأئمة يبين الحافظ ابن تيمية أن ذلك ليس عن هوى وعصبية ، أو عزوفًا عن السنن فقال : « وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عامًا يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سننه دقيق أو جليل ، فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًا على وجوب اتباع الرسول ﷺ ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلابد له من عذر في تركه »[٤].

وقد أرجع الحافظ ابن تيمية ذلك إلى عدم ثبوت صحة النص عند من لم يعمل به ، أو اعتقاد أن المسألة المختلف فيها لا ينطبق عليها ذلك النص محل

---

(١) الخطيب : اقتضاء العلم العمل ص٣٦ .
(٢) السابق ص٤٢ .
(٣) ابن القيم ، الروح ص ٦٢ .
(٤) ابن تيمية ، رفع الملام ص٢٢ ، ٢٣ .

النزاع ، وربما اعتقد المخالف نسخ تلك الرواية ، أو أن الحديث يعارضه ما يدل على ضعفه أو تأويله[١].

هذا ما يظن بأئمة السنة ، لا أنهم يخرجون عن الأطر النبوية ، أو يقدِّمون آراءهم بين يدي قول النبي ﷺ ؛ إذ الطريق إلى الجنة لا بد فيه المرور على طاعة الرسول ، وشهادة الإيمان لا تتم إلا بخاتم النبوة .

والحق أن من تصدى لمعرفة سنن الهدى وتعرض لنقد الحديث الشريف إنما أعلى بذلك شرفه ، ورفع بهذا ذكره ، وذلك لأن الشيء « يشرف بشرف موضوعه أو بمسيس الحاجة إليه »[٢].

فلولا الحديث لما سطع نجم البخاري ومسلم ، ولما ذكر ابن المديني وأحمد ، ولا عرف يحيى القطان ولا شعبة وآخرون كثيرون ، « وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي وعد الله لها بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح:٤) أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين وخرجوا من زوايا الخمول ، واستحقوا الحياة والاشتهار »[٣].

---

(١) ابن تيمية ، رفع الملام ص٣٧-٤٨ .

(٢) القاسمي ، قواعد التحديث ص٣٦ ، ط . ١ ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(٣) عبد الحميد محمود ، السنة ومكانتها في التشريع ص٦٨ ، المكتبة العصرية صيدا .

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

● محتوى البحث

احتوى البحث على توطئة تبين مكانة السنة المطهرة ، وقدر النبي ﷺ وكيف تجرد لعبادة الله تعالى والدعوة إلى دينه ، وكيف علت منزلته ﷺ في القلوب ، فبين العلماء جلاله وكماله،ووجوب طاعته والانقياد لأوامره والامتناع عن نواهيه، ولهج الشعراء بمدحه قديمًا وحديثًا ، وتتوقت القلوب إلى زيارة مسجده وقبره الشريفين في الدنيا وشفاعته في الآخرة ، فحب النبي ﷺ وسام على الصدور ، كما أن محبته صلوات الله وسلامه عليه ليست قولاً يدَّعى .

ثم جاءت المقدمة لتشمل محتوى البحث وبيان مفردات البحث لغة واصطلاحًا ، ثم الحديث عن دوافع البحث والصعوبات التي واجهها الباحث ، وكذلك المنهج البحثي المتبع مع تقييم جهود السابقين في ذلك الميدان .

وجاء صلب البحث من ثلاثة أبواب ، تناول كل باب فصولاً ثلاثة :

فجاء الباب الأول حول الحافظ الذهبي ، تحدث **الفصل الأول** عن عصره وحياته وآثاره ، وأظهر أثر العوامل السياسية والاجتماعية والعلمية في تكوين الحافظ الذهبي وكذا تطرقت في ذلك الفصل إلى مؤلفاته المتعددة ، وإلى ما انتحل عليه من مؤلفات وبينت بالدليل القاطع زيف تلك النسبة .

وأما الفصل الثاني فتناول ملامح المنهج النقدي عند الحافظ الذهبي ، ومن ذلك الإنصاف ، والمرونة والاعتدال ، والاهتمام بالكتب الستة ، ونقد المصنفات ومناقشة الحفَّاظ ، واستقراء المصادر وتقييم العلوم ، وما قعَّده من قواعد وسمتُها بالذهبية .

وجاء الفصل الثالث ليتناول المقومات العلمية للحافظ الذهبي ، وكيف كان الرجل موسوعي العلوم متعدد المشاركات في كثير من ألوان المعرفة ، فمن مصطلح الحديث إلى الجرح والتعديل ، مروراً بالفقه ، وعودة إلى التاريخ ، أضف

إلى ذلك الأدب وقواعد العربية وعلم اللغة ، والعقيدة ، وكان له نظرات تربوية والتفاتات سياسية إلى غير ذلك من مناحي العلوم وجوانب المعرفة .

وجاء الباب الثاني ليشمل نقد المتن ، ففي **الفصل الأول** كان الحديث عن نشأة نقد المتن وتطوره ، وكيف كانت آيات القرآن الكريم من أهم الروافد التي اعتمد عليها نقد المتن ، ثم تحدثت عن دوافع نشأة نقد المتن ، وتتبعت ذلك تاريخيًا حتى القرن السابع الهجري .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن مباحث نقد متن الحديث الشريف ، متحدثًا عن نقد المبنى ونقد المعنى ، ومقاييس نقد متون السنة إلى غير ذلك من مباحث .

وفي الفصل الثالث جاء الحديث عن مكنة الصحيحين من نقد متن الحديث الشريف ، مبينًا تلك المنزلة الرفيعة للصحيحين وتلقي الأمة لهما بالقبول ، وكيف ينبغي أن يكون العقل متوافقًا مع الشرع لا مخالفًا له ، وبينت مع ذلك أقوال العلماء وانتقاداتهم لأحرف يسيرة في الصحيحين ، وأن ذلك النقد بمثابة شهادة تقدير ودليل على علو هذين الكتابين ، لا التنقص من قدرهما ، كفى بالمرء فخرًا أن تعد معايبه .

ثم أتى الباب الثالث ليربط بين الحافظ الذهبي وبين نقد المتن ، **ففي الفصل الأول** حديث عن علاقة المتن بالإسناد .

وفي الفصل الثاني بيان لطرائق نقد المتن عند الحافظ الذهبي بشقيه الإيجابي والسلبي .

وفي الفصل الثالث الحديث عن الإمام الذهبي بين معاصريه في نقد متن الحديث الشريف مسلطًا الضوء على جهود علماء القرن الثامن في نقد متن الحديث الشريف .

ثم أتبعت ذلك بذكر أطراف الأحاديث التي انتقد الحافظ الذهبي متونها في مصنفاته وذكر حكمه عليها .

ثم خاتمة ، بها ملخص الرسالة ، والنتائج ، واقتراحات الباحث ثم ثبت المصادر والمراجع .

obeikan.com

المنهج . . والنقد . . والمتن : لغة واصطلاحًا

● **المنهج في اللغة :**

مشتق من الفعل «نهج» يقال : نهجت الطريق : سلكته ، ونهج الأمر : وضح[١]، فالمعنى اللغوي يشتمل على الوضوح ولزوم الطريق .

● **المنهج في الاصطلاح :**

جاء التعريف الاصطلاحي للمنهج ليشمل المعنى اللغوي، مع اختلاف الألفاظ، وإن اتحد المعنى .

فيراه دكتور أحمد سيد رحمه الله «المنطق الذي تحلل به مفاهيم العلم وطرائقه»[٢].

ويعرفه دكتور حامد طاهر بأنه «مجموعة خطوات متتالية تؤدي بالباحث إلى هدف محدد»[٣].

ويراه دكتور جودة مصطفى «العقد الذي ينظم حبات البحث ومسائله ، والنظام الذي يمنع من انفراط الأفكار والآراء والنظرات . . . »[٤].

ويختصر دكتور علي جواد الطاهر ذلك قائلاً : «المنهج في أبسط تعريفاته وأشملها طريقة يصل بها الإنسان إلى حقيقة»[٥].

ومن خلال استعراض تلك الأقوال وغيرها يتضح أن المنهج طريق أو وسيلة أو أسلوب أو قواعد أو خطوات على ضوئها يسير الباحث ، بُعدًا عن التخبط ووصولاً إلى أمثل النتائج ، لخدمة ذلك العلم خاصة والإنسانية عامة .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب مادة (نهج) تحقيق أحمد فارس ، دار الفكر ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م .

(٢) أحمد سيد ، الدليل إلى منهج البحث العلمي ص١١ ، ط . ١ ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

(٣) دكتور حامد طاهر ، مناهج البحث بين التنظير والتطبيق ص٣، دار النصر بجامعة القاهرة .

(٤) دكتور جودة مصطفى ، في البحث الأدبي ومناهجه ص٣، ٩، دون تاريخ أو ذكر الطبعة .

(٥) دكتور علي جواد الطاهر ، منهج البحث الأدبي ص١٩، المؤسسة العربية للنشر ، ط . ٣ ، ١٩٧٩م .

ومعلوم أن لكل علم طبيعة تجعل لها منهجًا يتناسب مع طبيعتها ، وكذلك في كل عصر أسلوب يختلف عن سابقه ولاحقه في تناول طرق البحث ، والذي ينشأ عن اختلاف المفاهيم السائدة في كل عصر ولكل علم .

● **النقد في اللغة :**

مشتق من فعل (نقد)، يقال : نقدت الدراهم وانتقدتها إذا أخرجت منها الزيف ، وناقدت فلانًا إذا ناقشته في الأمر ، ونقد الشيء إذا نقره بأصبعه ، وفي رواية عن أبي الدرداء : « إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك» بمعنى عبتهم ، ودرهم نقد : جيد لا زيف فيه»[١].

يتبين من المعنى اللغوي أن النقد عملية تمييز لما يقابل الناقد بين الصحيح وغيره ، وهو تحليل ومناقشة للمعلومات التي تنقل إليه ، والنص الذي تعرض للنقد هو النص الصحيح الذي لا زيف فيه .

● **النقد في الاصطلاح :**

أقدم تعريف يمكننا الوقوف عليه ما جاء عند ابن أبي حاتم في تقدمة الجرح والتعديل بأنه : « تمييز الأحاديث الصحيحة من الضعيفة ، والحكم على الرواة : توثيقًا وتجريحًا»[٢]. وهذا هو الهدف من عملية النقد ، وهو تمييز أقوال النبي ﷺ من أقوال غيره ، للعمل بما ثبت عنه ، وطرح ما سواه ، عن طريق معرفة منازل الرواة ودرجات حملة الآثار ، ورواة الأحاديث ، فيؤخذ حديث أهل الضبط والعدالة ، وتطرح روايات الضعفاء والكذابين .

● **المتن في اللغة :**

المتن : ما اكتنف الصلب من الحيوان ، والمتن من الأرض : ما صلب وارتفع منها ، ومَتُن الشيء : قوي متنه فهو متين[٣].

---

(١) ابن منظور لسان العرب مادة (نقد) والمعجم الوسيط ، نفس المادة ١٩٧٩م .

(٢) ابن أبي حاتم ، تقدمة الجرح والتعديل ص٥ ، ٦ ، تحقيق المعلمي اليماني ، دار إحياء التراث العربي ، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة متن .

● **المتن في الاصطلاح :**

عرفه ابن جماعة بقوله : «غاية السند من الكلام»[١].

كما عرفه دكتور محمد طاهر الجوابي بأنه «ألفاظ الحديث التي تتقوم بها المعاني»[٢].

وعرفه دكتور الحسيني هاشم بأنه «الألفاظ التي تحمل معنى الحديث»[٣].

وقال دكتور بكري أمين : «هو ما انتهى إليه السند من الكلام»[٤].

وهكذا تتقارب العبارات في تعريف متن الحديث الشريف ، وتتضح الصلة الوثيقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي فلفظ الرسول الكريم هو غاية الحديث ، وهو ما ارتفع وعلا من القول ، وهو قول صلب متين .

دوافع البحث

السنة المطهرة هي الرافد الثاني من روافد التشريع ؛ والينبوع التالي للكتاب العزيز لنقل الأمر والنهي ، وبيان أهداف الدين وإظهار معالمه ، وهي موضحة لمبهم الكتاب الكريم ومخصصة لعامه ، وإذا عدم أعداء الإسلام الحيلة مع القرآن الكريم فإن سهامهم قد امتدت للنيل من السنة المطهرة ، وإذا كانت علوم الإسناد قد أبهتت خصوم الإسلام ، فإن متن الحديث الشريف كان عرضة لأهوائهم ومعاولهم ، فجاء ذلك البحث استجابة لدوافع شتى .

أولاً : الدفاع عن منهج المحدثين في نقد متن الحديث الشريف ، فقد تطاول على بناة ذلك الصرح الحديثي كل متخرص أفّاك ، وتسلق على ذلك المنهج كل دعي مرتاب .

---

(١) القاسمي ، قواعد التحديث ص٢٠٢ .

(٢) الجوابي، جهود المحدثين في نقد متن الحديث ص٨٩، نشر وتوزيع مؤسسة عبد الكريم.

(٣) الحسيني هاشم ، أصول الحديث النبوي وعلومه ص٦ ، دار الشروق ط . ٣ ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

(٤) دكتور بكري أمين ، أدب الحديث النبوي ص٩٣ ، دار الشروق ط . ٤ ، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .

فقد صال المستشرقون وجالوا في حمى السنة المطهرة ، وأخذوا يطعنون ذلك المنهج الرائد بخنجر مسموم ويد ملطخة بالأحقاد ، وفكر سقيم لا يعرف نزاهة أو موضوعية ، فوجدنا منهم من يدعي أن من يريد أن ينسب قولاً للنبي ﷺ فما عليه إلا اختلاق إسناد لذلك القول كما يدعي شاخت[١].

وادعى آخر ، أن ثقافات مختلفة وفلسفات متنوعة ، ونصوصًا محرفةً كانت من المصادر التي اكتظ بها الحديث النبوي ؛ كما قال جولد تسيهر[٢].

وأما ألفريد غيوم فقد زعم أن الأحاديث النبوية الشريفة من وضع الصحابة والتابعين ، وأنهم استعانوا بالأمثال والقصص والحكم والأحداث المسطرة في الأناجيل ، خاصة عند اختلاط المسلمين بالنصارى في الفتوحات الإسلامية[٣].

وسارع كاتياني إلى القول بأن المحدثين تركز قصدهم في وادٍ ممحل من الأشخاص الذين ينقلون الحديث دون النظر إلى المتن نفسه ، ورأى أن المحدثين والنقاد المسلمين لا يجسرون على الاندفاع في التحليل النقدي للسنة[٤].

وإن كان المستشرقون قد تجرءوا على ذلك القول ، فإن لهم من الدوافع الدينية التي تدفعهم إلى الطعن في الإسلام والتبشير بدياناتهم .

وكذلك ما وراء تلك الحملات التبشيرية من دوافع سياسية واستعمارية وما يلي ذلك من استيلاء على مقدرات الشعوب وأقواتها ، وسلب الروح المعنوية والثقافة السائدة للشعوب الإسلامية ، مع بث أفكار الدول الاستعمارية[٥].

ولكن العجب من أبناء الإسلام الذين ارتدُوا أردية المستشرقين وساروا على منوالهم ، وتحدثوا بألسنتهم ، فتخرصوا ما لا يعلمون ، وتحدثوا فيما لا يعقلون ،

---

(١) نقلاً عن الأعظمي ، سلسلة مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية (٨٣/١)، مكتبة التربية العربية لدول الخليج .

(٢) نقلاً عن أحمد عمر هاشم ، السنة في مواجهة التحدي ص٣٩، مجمع البحوث الإسلامية .

(٣) نقلاً عن عزية علي طه ، دفاع عن السنة النبوية ص٤١ .

(٤) نقلاً عن دكتور محمد بهاء الدين ، المستشرقون والحديث النبوي ص١٢٩ ، دار النفائس ، ط . ١ ، ١٤١٩-١٩٩٩م .

(٥) دكتور مصطفى السباعي ، الاستشراق والمستشرقون ص١٥-١٩، المكتب الإسلامي ط . ٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

يقول أحمد أمين : «الحق إن المحدثين عنوا عناية تامة بالنقد الخارجي ، ولم يعنوا هذه العناية بالنقد الداخلي . . . فلم يعرضوا لمتن الحديث ، هل ينطبق على الواقع أو لا»[١].

والعبارة ذاتها يلوكها محمود أبو رية قائلاً : «إن للحديث المحمدي من جلال الشأن وعلو القدر ما يدعو إلى العناية الكاملة به ، والبحث الدقيق عنه ، ولكن العلماء والأدباء لم يولوه ما يستحق من العناية والدرس ، وتركوا أمره لمن وقفوا بعلمهم عند ما يتصل بالسند فحسب ، أما المعنى فلا يعنيهم في شيء»[٢].

ويزداد الأمر سوءًا عندما تقع عبارات بعض العلماء العاملين ، التي تتضمن عدم وضوح منهج نقدي لمتن الحديث الشريف عند المحدثين .

يقول الشيخ الألباني رحمه الله : «ليس لهذا النقد الداخلي قواعد محررة ، وضوابط مقررة يمكن الاعتماد عليها ، والرجوع حين الاختلاف إليها ، خلافًا للنقد الخارجي ، أي نقد السند ، فقد وضع له علماؤنا من القواعد والضوابط ما لا يمكن الزيادة عليه»[٣].

ويعلق الشيخ الغزالي رحمه الله على قبول المحدثين متن : «دية المرأة على النصف من دية الرجل» قائلاً : «هذه سوءة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون»[٤].

ثانيًا : الإسهام في بناء ذلك الصرح الحديثي ، بوضع لبنة متواضعة في ذلك البنيان الشاهق ، فأردت من ذلك البحث البيان العملي لجهود المحدِّثين في نقد متن الحديث الشريف من خلال أحد علماء ذلك الفن ونقاده ، وإذا كان الحافظ الذهبي قام بذلك الجهد الهائل ؛ فإن دراسات مماثلة من شأنها إلقاء الضوء على ذلك الجهد العظيم ، وتلك المنهجية الرائدة .

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام (١٣/٢) ، مكتبة النهضة المصرية ، ط . ١٠ ، ٢٠٠٠م .

(٢) محمود أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية ص٧ ، دار المعارف .

(٣) الربعي ، فضائل الشام ودمشق ، ص١٧ ، ١٨ ، تحقيق الألباني ، المكتب الإسلامي ط . ٤ ، ١٤٠٥هـ ، (مقدمة المحقق).

(٤) الغزالي ، السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ، ص٢٣، دار الشروق ط . ٨ ، ١٤٠٩هـ .

ثالثًا : الرغبة الشخصية في التعايش مع ذلك الحافظ عن قرب أكثر ، فقد انبهرت بعلم الرجل وإنصافه ، وشجاعته ، وتربويته أثناء عملي في تحقيق التراث ، فأردت أن أزداد من ذلك المعين الصافي ، والمورد العذب .

منهج البحث

اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي ؛ حيث قمت برصد جهود الحافظ الذهبي في نقد متن الحديث الشريف ، وجعلت ذلك في فصول ومباحث ، مسلطًا الضوء على دور الإمام الذهبي في ذلك الميدان وبيان جهود المحدِّثين في نقد متن الحديث الشريف من خلال ذلك النموذج الذي صح إلى الذهب نسبته ، وإلى الشمس لقبه .

صعوبات البحث

على الرغم من كثرة الكتابة في منهج النقد إلا أن ذلك الميدان مازال خصبًا ، فتراثنا الهائل يحتاج إلى دراسات ودراسات .

وعلى الرغم من أن موضوع الدراسة محبب إلى النفس ، فقد تعرض ذلك البحث للعديد من الصعوبات ، وإن كانت أطيب الثمار ما جاء عن حاجة وبعد طول عناء ، فالدرب طويل ، والرحلة شاقة ، عبر سلسلة من المؤلفات الذهبية لعالم ذهبي في فروع متعددة ، ما بين مطبوع ومخطوط ، وما بين موجود ومفقود ، والوقوف في رحلة البحث عند محطات المكتبات العامة حينًا والخاصة والشخصية أحيانًا .

والحافظ الذهبي ذو إنتاج غزير ، ومادة وفيرة ، ولا ينبغي لمن رام بحثًا عنه إلا أن يتتبع ذلك التراث الهائل الذي خلفه لنا ، وقد أكثر الحافظ الذهبي من تأليف المطولات كتاريخ الإسلام ، وسير أعلام النبلاء ، وتنقيح التحقيق ، ومهذب السنن مما احتاج المزيد من الوقت والجهد ، بحثًا بين الأوراق ، في رحلة عبر السطور عن آرائه ومنهجه ، واتجاهاته وإسهاماته .

أضف إلى ذلك الطريقة المتبعة في ذلك البحث ، فقد حاولت التعرف على الرجل لا من كتب التراجم فحسب ، ولم أكتف لتحليل آرائه ووصف منهجه ببعض النماذج ، ولكن حرصت على وضع رؤية متكاملة ونظرة شاملة لذلك

العَلَم من خلال ما وصل إلينا من مؤلفاته المتعددة ، فقد اطلعت على دراسات مماثلة اهتمت بنقد المتن عند الإمامين : ابن تيمية وابن القيم ، غير أن الأولى توسعت ولكن في نماذج محدودة ، والأخرى تناولت الموضوع بشيء من السطحية ، فحرصت في بحثي ـ مع الإجهاد الشديد ـ أن أتعامل مع الحافظ الذهبي من خلال نظرة كلية لا جزئية .

وأود الإشارة إلى ظاهرة عدم جرأة الباحثين الجُدد إلى تناول بعض الموضوعات التي تناولها بعض الباحثين القدامى ، مع أن الموضوع الواحد في العصر ذاته إذا تناوله غير واحد ، فأعتقد أن الخبرات العلمية واختلاف الرؤى ، وتنوع الاهتمامات والاتجاهات سينتج ألوان مختلفة من أنماط الطرح العلمي ، فضلاً عن أن يكون بين البحثين عقود متباعدة ، مع ما وفرته ثورة الطباعة وصحوة تحقيق التراث الإسلامي من تقريب ما لم يكن بالأمس متاحًا ، ومع نشاط البحث في علوم الحديث وأصوله ، فإن طرائق البحث لابد ألا تقف وثمرات المعرفة ينبغي ألا تحجب .

كما كان من مظاهر المشقة بُعد المكتبات ، وكثرة الاستعارات ، مع عدم التفرغ الكامل ، مما جعل المسيرة أشق ، والطريق أوعر .

ولكن تلك الصعوبات سرعان ما تبددت ، وتلك المهام الجسام قد تذللت مع إرشاد سديد ، وتوجيه ثاقب ، وبث روح النشاط والأمل ، أضف إلى ذلك بسمة مشرقة ويد حانية شملني بها أستاذي وقدوتي الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شاكر ، شكر الله له صنيعه ، وأنزل السكينة على فؤاده ، وجعل ذلك في ميزان حسناته .

تقييم جهود السابقين

لا أدعي أنني طرقت موضوعًا بكرًا لم يتناوله أحد ، غير أنني أراه بحاجة إلى دراسة ؛ بل دراسات ، لا تهدم الدراسات السابقة أو تناقض نتائجها ؛ بل لتكمل البناء ، وتسلط الضوء على أجزاء أخرى ، وهكذا العلم رحم بين أهله ، يدور حوله طلبة العلم ، ويجتمع عليه الباحثون .

وإذا شاع أن الموضوع الجديد هو الذي لم يتطرق إليه أحد ، فإن كثيرًا من الموضوعات التي طرق عنوانها مازال مضمونها بحاجة إلى الدرس والبحث ، ومن جهود السابقين :

أ- ترجمة الإمام الذهبي :

١- ممن اعتنى بترجمة الحافظ الذهبي رحمه الله الدكتور بشار عواد في كتابه «الذهبي ومنهجه في كتابه : تاريخ الإسلام» ، وقد عنى الدكتور بشار بإلقاء الضوء على حياة الحافظ الذهبي ، ولكن التميز الكبير في كتابه ما تتبعه من مصنفات الحافظ الذهبي المطبوع والمخطوط والمفقود والإشارة إلى ذكر المصنف في كتب التراث إن كان مفقودًا ، أو إلى مكان وجوده إن كان مخطوطًا ، وإلى طبعته إن كان مطبوعًا .

٢- وكذلك اعتنى الدكتور قاسم علي سعد بذكر سيرة موجزة له ، ثم استدراكات على بعض ما فات الدكتور بشار عواد من مصنفات الذهبي رحمه الله في كتابه «صفحات في ترجمة الحافظ الذهبي» .

٣- وقد جمع ذلك الأستاذ عبد الستار الشيخ في كتابه «الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام ، ناقد المحدِّثين» ، ضمن سلسلة أعلام المسلمين ، فتوسع في ترجمته ، وذكر مصنفاته والعلوم التي برع فيها ، والإشارة إلى عنصر النقد كأهم مكونات شخصية الحافظ الذهبي العلمية .

وهذه جهود طيبة في مجال الترجمة للحافظ الذهبي ، لذلك لم أتوسع في ذلك الميدان ؛ إذ سبق إليه أفذاذ ، وقدموا جهدًا مميزًا على مائدة البحث وفي ميدان المعرفة .

ب ـ دراسات عن الحافظ الذهبي :

١- ومن تلك الدراسات ما قدمه الدكتور محمد شوقي خضر في رسالته لنيل درجة الدكتوراه بعنوان : «الذهبي المحدِّث» ، ولكن أتت هذه الرسالة فيما يشبه كتب المصادر ، فأخذ في تعداد بعض مصنفات الذهبي المطبوعة ، ثم شرع يسطر موضوع كل كتاب ، بنظرة خلت عن التحليل واكتفت بوصف هذه المصادر ، ولعل الدراسات الحديثية لم تسعفه في ذلك الوقت .

٢- كما قدم يحيى بن عبد الله البكري بحثًا بعنوان : «كشف الغطاء عن أحكام الذهبي في سير أعلام النبلاء» ، ورتب كتابه على المسانيد ، ثم ذكر أحكام الحافظ الذهبي على الحديث أو الأثر ، سندًا ، ومتنًا ، فاكتفى بذلك الكتاب دون بقية الكتب كما اكتفى بجمع المادة ، دون ترتيب أو تبويب ، فقدم بذلك

خدمة علمية مساعدة انتفعتُ بها في الوصول إلى نماذج قبل الشروع في البحث للاطمئنان على اهتمام الذهبي بمتن الحديث .

٣- وسطر الأستاذ محمد بن عبد الله الهبدان بحثه : « الدراري المكنونة في الأماكن المنثورة ، فوائد وقواعد من كتب الإمام الذهبي » ، فجمع فيه فوائد عظيمة ، وعلى قلة صفحات الكتاب إلا أنه حوى دررًا كما عنون عليه مؤلفه ، فاعتنى بجمع أقوال الحافظ في قواعد علم الحديث ، ورؤيته لمناهج الحفاظ ، وتفسير ألفاظ الجرح والتعديل ونظراته لكتب الجرح والتعديل ، واجتهاداته في الحكم على الرجال ، ونقده للمصنفات الحديثية ، غير أن ذلك كان كسابقه يغلب عليه الجمع دون التصنيف أو التبويب ، اكتفى جامعه بذكر أقوال الحافظ الذهبي دون أن يتدخل .

جـ ـ دراسات في نقد متن الحديث الشريف :

١- ومن ذلك كتاب الدكتور رفعت فوزي « توثيق السنة في القرن الثاني الهجري »، حيث جعل القسم الثاني من كتابه (رسالته لنيل الدكتوراه) ، واهتم بذكر مقاييس توثيق أو نقد متون السنة ، وذكر من ذلك عرض أحاديث الآحاد على الكتاب ، ثم السنة المشهورة ، فعمل الصحابة وفتاويهم ، ثم عمل أهل المدينة ، والقياس ، ثم عرض لمبحث الرواية بالمعنى ، وذكر في عرضه لتلك المقاييس لأقوال الموافق والمخالف .

٢- وقدم الدكتور مسفر الدميني بحثًا بعنوان : « مقاييس نقد متون السنة » ، وقسم تلك المقاييس إلى ما يعتد به المحدثون ، وما يعتني به الفقهاء .

٣- كما قدم الدكتور صلاح الأدلبي كتابًا بعنوان « نقد المتن عند المحدثين » عرض فيه لشيوع نقد المتن في زمن النبي ﷺ ، ثم صحابته رضوان الله عليهم ، واعتنى بذكر الشواهد على ذلك ، ومع التتبع التاريخي ، عرض دكتور الأدلبي لنماذج من السنة انتقد العلماء متونها ، بعضها في الصحيحين ، وبعضها في السنن وبعضها في كتب العلل والموضوعات والضعفاء .

٤- وجاء كتاب الدكتور محمد طاهر الجوابي « جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف » فاهتم بنقد مبنى المتن ، فذكر غريب الحديث

والتصحيف ، والقلب ، وكذلك اعتنى بنقد معنى المتن ، فذكر التعارض ، والنسخ ، والإشكال ، والاضطراب ، والإدراج ، والتفرد والنكارة ، وزيادة الثقة .

٥- وقدم الدكتور نجم عبد الرحمن خلف كتابه : «نقد المتن بين صناعة المحدثين ومطاعن المستشرقين» ، والذي استخلص كثيرًا من مادته من رسالته لنيل درجة الدكتوراه ، «الصناعة الحديثية في السنن الكبرى للبيهقي»، وتعرض لبيان شبهات المستشرقين وأذنابهم ، ثم الحديث عن شروط ناقد المتن ، ومعايير نقده ، مع بيان النقد السلبي والإيجابي لمتن الحديث الشريف ، وذكر أوجه الترجيح بين المتون .

٦- وقدم الدكتور رضا زكريا بحثًا بعنوان : «عناية أهل الآثار بنقد متون الأخبار» رد فيه على الأستاذ أحمد أمين في كتابيه : «ضحى الإسلام» ، و«ظُهر الإسلام» وذكر أمثلة لنقد المحدثين للمتن مع صحة السند ، وأكد على وجود النقد الداخلي للنص متزامنًا مع النقد الخارجي .

٧- وقدم الأستاذ إسماعيل الكردي بحثًا بعنوان : «نحو تفعيل قواعد نقد متن الحديث ، دراسة تطبيقية على بعض أحاديث الصحيحين» ، وقد حشد في بحثه أقوال العلماء في أن الصحيحين لم يسلما من نقد يسير لبعض أحاديثهما ، وذكر أحاديث في الصحيحين انتقد بعض المحدثين متونها ، وذكر أخرى يرى تعارضًا بينها ، ولكنه توسع في ذلك وأفرط ، مع أن أسلوبه هادئ ولهجته معتدلة .

وسيرًا على الدرب ، ورغبة في المشاركة في البناء ، أردت أن أجمع ما تيسر لي عن الحافظ الذهبي ومنهجه في نقد متن الحديث الشريف ، مع التأكيد أن ذلك الصرح مكتمل البنيان ، مرتفع الأركان ، وما الحافظ الذهبي إلا نموذج من نماذج النقاد المحدثين لا مطلق الرواة ، أولئك النقاد الذين حملوا على عواتقهم بناء ذلك المنهج .